الصحافة فى عصر اسماعيل

حقائق وذكريات مطوية

كان عصر اسماعيل على قصره من أحفل عصور مصر الحديثة بالحوادث والتطورات السياسية والاجتماعية ، وكان أهم ما يميز هذا العصر تعدد نواحيه ، وتنوع اتجاهاته ؛ ففيه تمتد النهضة إلى سائر النواحى ، وتتغلغل فى مختلف جوانب الحياة العامة . وكانت النهضة الأدبية والثقافية التى وضعت أسسها فى عهد محمد على ، وألفت ميدانها الخصب فى مختلف البعوث العلمية والأدبية ، قد أخذت تتفتح وتزدهر . وحفل عهد اسماعيل بجمهرة من الأدباء والكتّاب الذين درجوا فى مهادها . وكانت الصحافة الشعبية تبدو يومئذ بدعة أدبية محدثة تتأهب لأن تخطو خطواتها الأولى . ذلك أن الصحافة المصرية لبثت حتى عهد اسماعيل تتركز فى جريدة الحكومة الرسمية ، وهى الوقائع المصرية ، وتتركز حركة الطباعة والنشر فى مطبعة بولاق الأميرية . وكانت هاتان المؤسستان العظيمتان ، وهما أيضاً من غرس محمد على ، قد وهبتهما الحكومة فى عهد سعيد باشا لأحد الموظفين ، وآل أمرها إلى التدهور والخراب ؛ فشاء القدر أن يفتتح اسماعيل عهده بانقاذهما إذ قرر شراءهما ودفع ثمنهما من ماله ، وردّ تا بذلك إلى حظيرة الرعاية الرسمية . ودل اسماعيل بهذا التصرف المحمود على ما يكنه نحو المنشآت العلمية من تقدير ، وهى عاطفة ظهر أثرها فيما بعد فى فرص ومناسبات عديدة .

وكان مولد الصحافة الشعبية المصرية فى بداية عهد اسماعيل ؛ ففى سنة ١٨٦٥ أنشأ الدكتور محمد على باشا البقلى والشيخ ابراهيم الدسوقى كبير مصححى المطبعة الأميرية مجلة اليعسوب الطبية ، فكانت أول صحيفة مصرية خاصة ظهرت بعد الوقائع المصرية ، ولكنها احتجبت بعد زمن وجيز .

وفى سنة ١٨٦٧ صدرت أول صحيفة أدبية سياسية إخبارية ، وهى جريدة وادى النيل التى أنشأها الشاعر الأديب عبدالله افندى أبو السعود ؛ فكانت أول

جريدة مصرية من نوعها ، وكانت تصدر فى شكل المجلة مرتين فى الأسبوع ، وكان لها مطبعة خاصة تقوم إلى جانب طبع الجريدة بطبع بعض الكتب الأدبية القديمة . واستمرت وادى النيل فى الظهور حتى عطلت بأمر الحكومة سنة ١٨٧٢ . وكان عبدالله افندى أبو السعود من نوابغ الكتاب والصحفيين ومن أنجب تلاميذ رفاعة بك وأرسخهم قدماً فى التحرير والترجمة ، وله عدة مؤلفات فى التاريخ وديوان شعر حسن ، وتولى فى عهد اسماعيل رياسة قلم الترجمة وتدريس التاريخ فى دار العلوم ، ثم عين قاضياً بمحكمة الاستئناف وتوفى سنة ١٨٧٨ .

ولما عطلت وادى النيل أنشأ محمد بك أنسى نجل عبدالله أبو السعود افندى مكانها جريدة « روضة الأخبار » ، ثم غير اسمها إلى « النيل » فى سنة ١٨٧٨ ، واستمرت تصدر بهذا الاسم حيناً .

وتلا جريدة وادى النيل فى الظهور مجلة « نزهة الأفكار » الأسبوعية أنشأها فى سنة ١٨٦٩ ابراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال ، وكلاهما من أساطين الأدب والبيان فى ذلك العصر ؛ بيد أنها لم تلبث أن عطلت بأمر الخديو بعد ذلك بقليل .

وفى سنة ١٨٧٠ ظهرت مجلة روضة المدارس الشهيرة . أنشأها العلامة على باشا مبارك وقت أن كان ناظراً للمعارف ، وكانت مجلة حكومية تتولى نظارة المعارف إصدارها والإنفاق عليها وتعنى بالشئون الأدبية والعلوم العصرية . وكانت فى هذا العصر الذى ازدهرت فيه النهضة الأدبية روضة حقة ، تحفل بثمار جمهرة من الأقلام البارعة ؛ وتولى رياسة تحريرها فى البداية العلامة رفاعة بك الطهطاوى يعاونه ولده على بك فهمى رفاعة ؛ وكان يساهم فى الكتابة فيها على باشا مبارك ، وعبدالله باشا فكرى ، والشيخ حسين المرصفى ، ومحمود باشا الفلكى ، ومحمد قدرى باشا ، وأحمد بك ندا ، والسيد صالح بك مجدى ، وعبدالله أبو السعود افندى ، والشيخ حسونة النواوى ، والشيخ حمزة فتح الله ، وغيرهم من أعلام البيان فى ذلك العصر . واستمرت روضة المدارس تصدر بانتظام ثمانية أعوام ، وكانت تصدر مرتين فى الشهر وتوزع على التلاميذ مجاناً ، وكان لها أثر كبير فى خدمة النهضة الأدبية فى ذلك الحين .

وصدرت فى الوقت نفسه مجلتان رسميتان للجيش المصرى ، تسمى إحداهما

«جريدة أركان حرب الجيش المصرى» ، والأخرى «الجريدة العسكرية المصرية» ؛ يتولى تحريرها ضباط الجيش ورجاله الفنيون . وصدرت مجلة « أركان حرب » شهرية فى سنة ١٨٧٣ واستمرت تصدر أعواماً ، وكانتا تطبعان فى مطبعة الجيش التى ضمت فيما بعد إلى المطبعة الأميرية .

وأنشأ سليم الحموى من الأدباء اللبنانيين النازحين جريدة بعنوان « الكوكب الشرقى » بالأسكندرية فى سنة ١٨٧٣ ، ولكنها لم تلبث أن احتجبت ، فأنشأ بعدها مجلة أسبوعية تسمى «الاسكندرية» فى سنة ١٨٧٨ ولكنها احتجبت بعد أعوام قلائل .

وقد كان اسماعيل يقدر بذكائه وبعد نظره ما للصحافة يومئذ من الأثر العميق فى تكييف الأفكار والاتجاهات السياسية والاجتماعية ؛ ولهذا لم يضن عليها بعطفه و إغداقه . بيد أنه يلاحظ أن الصحافة المصرية الحقيقية لم تكن قد نشأت يومئذ ؛ وبذا استأثرت بنفحات اسماعيل وصلاته طائفة من الصحف الأجنبية المحلية والخارجية .

وتدل الأوامر العالية والوثائق المختلفة التى استعرضناها فى هذا الشأن على أنه كانت ترصد كل عام فى عهد اسماعيل اعتمادات شتى لمعاونة الصحف ووكالات الأخبار الأجنبية فى كثير من العواصم الأوربية ، وكذلك لبعض مكاتب الصحف . وكانت هذه الاعتمادات تصرف أحياناً بصفة ثابتة منتظمة ، وبعضها يصرف بدلا لاشتراك الحكومة فى عدد كبير من هذه الصحف ، والبعض الآخر يصرف كإعانات وهبات لأسباب وبواعث سياسية أو شخصية يصعب استجلاؤها .

فمثلا نقرأ فى إرادة صادرة لناظر المالية فى سنة ١٨٦٣ بأن يصرف المبلغ المرتب سنوياً لصاحب الجرنال المستقل البلجيكى (وهو فيما نعتقد جريدة *Indépendance Belge*) وقدره ستون ألف قرش من خزينة نظارة المالية ورفعها لطرف الديوان .

وصدر أمر المالية فى صفر سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) بصرف مبلغ العشرة آلاف فرنك مرتب الجرانيل المطالب بصرفه مسيو دومارتينو ، وكان يصرف سنويا مقدماً لأخيه يصرفه بمعرفته إلى جرانيل تليانى .

وصدر فى ربيع الأول سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) أمر للمالية بأن يدفع مبلغ

٢٣٨ ليره و ٦ شلنات قيمة سنوية (اشتراك) مائة نسخة من الجرنال المسمى المالية (وفى اعتقادنا أنه جريدة *Finance*) من ابتداء ٢١ أكتوبر سنة ١٨٧٤ ، ومبلغ ١٣٦ ليره سنوية مائة نسخة من الجرنال المسمى رفيو لنفس المدة .

وصدر أمر فى ربيع الثانى سنة ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) بالموافقة على صرف مبلغ ثلاثين ألف فرنك ، صرفت إلى مسيو وينكر محرر جرنال لوفات هيرالد بالاستانة ؛ وصدر الأمر فى نفس التاريخ « برفع الاعانة السنوية التى كانت تدفع إلى جرنال فينانسه التليانى من خمسة آلاف فرنك سنوى إلى عشرة آلاف ، وذلك ابتداء من سنة ١٨٧٥ » .

وفى سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) صدر للمالية أمر « بصرف مبلغ ١٢٦,٧٥٠ قرشاً إلى مسيو ما كدن المكتاتب بلوندره ما يعادل ١٣٠٠ ليره أسترلينية منها ألف ليره مرتبه سنة كاملة ، والباقى نظير مصاريف أجرى صرفها » .

وصدر فى نفس العام أمر « باعتماد مبلغ ١٩,٥٠٠ قرش قيمة ٢٠٠ ليره أسترلينية نظير مصاريف جرانيل بمدينة فينا مدة ثلاثة شهور مقدماً ابتداء من يوليو إلى سبتمبر سنة ١٨٧٦ ، تدفع إلى مسيو بلوم ناظر البنك النمسوى » .

ويتضح من مراجعة ميزانية الجرائد (أو مرتبات الجرانيل كما توصف) فى سنة ١٨٧٧ أن حكومة الخديو كانت تصرف مبالغ كثيرة إلى صحف أجنبية عديدة فى لندن وباريس وإستانبول وفينا وغيرها ، وأنها كانت تؤدى إلى وكالة رويتر إعانة قدرها ٢٤٦,٢٥٠ قرش وإلى وكالة هافاس إعانة قدرها ٢٣,١٠٠ قرش . وكان هذا منشأ الإعانة الرسمية التى استمرت من ذلك الحين تصرف إلى هاتين الوكالتين الشهيرتين ، والتى ما زالت تؤديها الحكومة كل عام إلى وكالة رويتر حتى يومنا .

كذلك كانت حكومة الخديو تدفع إعانات ضخمة للصحف الأجنبية المحلية ، . مثال ذلك أنها كانت تؤدى سنويا إلى صاحب جريدة « الفارد الكسندرى » ، وهو محام يونانى مبلغ خمسين ألف فرنك سنويا (نحو ألفى جنيه) مقابل اشتراكها فى عدد من نسخ الجريدة كان يرسل إلى دواوين الحكومة ، وذلك بمقتضى عقد لمدة خمسة أعوام ابتداء من يناير سنة ١٨٧٥ .

وكانت تصرف بعض الإعانات أيضاً إلى بعض الصحف العربية ، بيد أنها كانت تصرف على الأغلب إلى الأدباء النازحين . وكان اسماعيل فى سعة أفقه يشمل برعايته كل مشروع أدبى أو صحفى عربى ولو كان خارج حدود مصر . من

ذلك أنه صدر أمر للمالية فى سنة ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) بصرف مبلغ ١٠٠٠ جنيه « إلى سليم افندى البستانى كدفعة من ثمن ألف مجلد من كتاب دائرة المعارف الجارى طبعه بطرفه ببيروت » . وقد رفعت هذه الاعانة فيما بعد إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه نظير استلام الحكومة مائتى نسخة من الموسوعة المذكورة[1] وأنه كانت تؤدى إعانة سنوية إلى جريدة « الجنان » البيروتية التى كان يصدرها سليم افندى المذكور ، وأنه كانت تدفع إلى أحمد فارس الشدياق صاحب جريدة الجوائب إعانات مختلفة ، هذا عدا ما كان يدفع إليه نظير اشتراك الحكومة فى نسخ الجوائب وقد بلغ فى سنة ١٨٧٦ وحدها مبلغ ٣١,٥٩٠قرش.

وورد فى ميزانية الصحف (مرتبات الجرائيل) فى هذه السنة ما يدل على أن مجلة روضة الأخبار المصرية لصاحبها محمد افندى أنسى كانت تستولى على إعانة قدرها ٢٧,٧٧٤ قرش ، وهى الجريدة المصرية الوحيدة التى ورد ذكرها فى قائمة الصحف التى تحظى بعون الحكومة[2] .

وقد يبدو أن فى هذه المبالغ الكبيرة التى كانت تخصصها حكومة الخديو لإعانة الصحف الأجنبية والمراسلين الأجانب نوعاً من الاسراف الذى امتاز به هذا العهد . ولكن يجب أن نذكر أن السياسة المصرية كانت تجتاز فى أواخر عهد اسماعيل مرحلة دقيقة ، وأن الخديو كان يحاول بهذه الهبات أن يتقى قدر الاستطاعة شر الدعايات المغرضة .

هذا وقد كانت كلمة جرنال وجرائيل تستعمل طوال القرن الماضى للاشارة إلى الصحف والصحافة ، وذلك منذ أنشئ ديوان « جرنال الخديو » فى أوائل عهد محمد على ، واستعملت أيضاً غير مرة للإشارة إلى « الوقائع المصرية » وظهرت فى كثير من الأوامر الرسمية المتعلقة بالصحف الداخلية والخارجية حتى قيام الثورة العرابية ، وكذلك استعملها قانون المطبوعات المصرى الصادر فى سنة ١٨٨١ ، واستعملت أيضاً فى الأوامر الرسمية كلمة الغازيتات إلى جانب كلمة الجرائيل ، واستعملت كلمة « صحيفة » فى أحيان قليلة ولكن بدون أن يكون لها نفس المعنى الصحفى الواضح الذى تدل عليه اليوم .

---

(١) هى « دائرة المعارف » التى وضعها المعلم بطرس البستانى والد سليم المذكور .

(٢) اعتمدنا فى تلخيص الأوامر المتقدمة على مثبت الأوامر الخديوية الذى أورده المرحوم أمين باشا سامى فى « عصر إسماعيل » .

ولم تظهر كلمة جريدة وجرائد بصورة منتظمة إلا فى أواخر القرن الماضى ، ثم تلتها كلمة صحيفة وصحف وصحافة ، بمعناها الحديث ، واختفت كلمة جرنال وجرانيل نهائيا من الوثائق الرسمية واللغة الثقافية الرفيعة ، وأضحت كلمة الصحافة ومشتقاتها هى الكلمة المفضلة اليوم .

وفى أواخر عهد اسماعيل وقع حادث صحفى ذو شأن هو صدور جريدة الأهرام ، وكان صدورها فى أوائل أغسطس سنة ١٨٧٦ بثغر الأسكندرية على يد منشئيها الأخوين سليم وبشاره تقلا اللذين نزحا إلى مصر قبل ذلك بقليل . وفى ملف الجريدة الرسمى بوزارة الداخلية صورة التصريح الصادر من الخارجية إلى ضبطية الأسكندرية فى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٧٥ بالترخيص باصدار الأهرام ، وقد جاء فيه : « إنه تقدم انهى من الخواجه سليم تقلا يلتمس التصريح له بانشاء مطبعة حروف تسمى الأهرام بجهة المنشية بالاسكندرية يطبع فيها جريدة تسمى الأهرام تشتمل على التلغرافات والمواد التجارية والعلمية والصناعية والمحلية وألا تتعرض للمسائل البوليتقية . . . »

وصدرت الأهرام منذ يوم السبت ٥ أغسطس سنة ١٨٧٦ أسبوعية ، وكانت تصدر كل سبت فى أربع صفحات من قطع الصحف النصفى . ونمت الأهرام وتقدمت بسرعة ، وصدرت يومية بعد ظهورها بقليل . وغضب الخديو اسماعيل على الأهرام لتعرضها لبعض تصرفاته فأمر بتعطيلها والقبض على محررها سليم تقلا فى أوائل سنة ١٨٧٩ ، وتقديمه للمحاكمة . ولكن تدخل قنصل فرنسا فى الأمر انتهى بالعفو عنه والعدول عن محاكمته . واستمرت الأهرام تشق طريقها قدماً ، وهاجمت الثورة العرابية بعنف ، ثم عمدت بعد ذلك إلى معارضة الحكومة الخديوية وعطلت من أجل ذلك غير مرة ، بيد أنها استمرت فى طريقها ثابتة راسخة القدم ، ونقلت إدارتها إلى القاهرة منذ سنة ١٨٩٨ ، واشتد ذيوعها فى مصر والعالم العربى كله ، وأضحت اليوم من أعظم الصحف العربية نفوذاً وانتشاراً .

وفى أواخر سنة ١٨٧٧ ظهرت جريدة « الوطن » القبطية أسبوعية سياسية ، وكانت فى بداية أمرها مصرية وطنية النزعة وناصرت الثورة العرابية ، ولكنها جنحت فيما بعد إلى مقاومة الدعوة الوطنية التى يحمل لواءها مصطفى كامل وإلى مناصرة الانجليز ، وقامت بعد ذلك بدور لا يحمد فى إثارة النعرة الطائفية .

وصدرت فى نفس هذا العام بالقاهرة جريدة « مصر » الأسبوعية لصاحبها أديب إسحاق ثم عطلت بعد عامين . وأنشأ أديب إسحاق وسليم نقاش فى سنة ١٨٧٨ بالاسكندرية جريدة « التجارة » يومية سياسية ، وكان الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغانى يخصانها ببعض رسائلهما ، ولكنها لم تلبث أن عطلت فى سنة ١٨٨٠ .

وفى نفس هذا العام الحافل بالنشاط الصحفى أعنى سنة ١٨٧٧ ظهرت بالقاهرة صحيفة من نوع خاص هى مجلة « أبو نضارة » الهزلية لمنشئها ومحررها الكاتب الاسرائيلى الفكه الشيخ يعقوب صنوع ، وكانت أول مجلة نقدية فكاهية من نوعها بمصر . وكان الشيخ صنوع إسرائيليا مصريا تلقى ثقافة واسعة فى مصر وأوربا ، وأنشأ فى سنة ١٨٧٠ أول مسرح عربى بالقاهرة بمساعدة الخديو اسماعيل، ثم اتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، واتفقا معه على أن يصدر جريدة عربية هزلية لانتقاد أعمال الخديو وحكومته ، فأصدر مجلة « أبو نضارة » وكان يحررها بلغة دارجة نصف عامية ، بأسلوب فكه لاذع ، وينشرفيها بريشته صوراً رمزية مسلية . وذاع أمر هذه المجلة بسرعة . وغضب الخديو لتطاولها على نقده ، فأوعز إلى قنصل إيطاليا بنفى صاحبها إذ كان محتمياً بايطاليا فأبعد عن القطر وسافر إلى باريس واستأنف هناك إصدار مجلته . وصدرت مجلة « أبو نضارة » فى باريس فى أغسطس سنة ١٨٧٨ ، ويعرضها محررها الكاتب الفكه فى عددها الأول على النحو الآتى : « رحلة أبى نضارة زرقا الولى من مصر القاهرة إلى باريز الفاخرة بقلم جيمس سانووا (يعقوب صنوع) محرر جريدة أبى نضارة زرقا الباهية والدة النظارات المصرية » .

وكانت هذه المجلة الفكاهية تصدر يومئذ أسبوعية مكتوبة بخط اليد ومزينة بطائفة من الصور الرمزية ومحررة بأسلوب فكه ممتع ، وبها محاورات بين شخصيات مختلفة بلغة دارجة مضحكة ولكن قوية لاذعة ، وفيها حملات مرة على الخديو وتصرفاته ، ونكت وأزجال بلدية ، ورسائل رمزية على لسان شخص يدعى الشيخ يوسف الشفعاوى يستعرض فيها مثالب الحكم القائم إلى غير ذلك من الحملات والدعايات المرة[1]. ومنعت أبو نضارة بالطبع من دخول مصر ولكن الشيخ صنوع كان يحتال فى تسميتها وإرسالها سرًّا إلى مصر، فكان يسميها

(١) يحتفظ دار الكتب بمجموعة من أعداد « أبو نضارة » التى صدرت فى باريس .

بأسماء مختلفة مثل « أبو زمارة » « وأبو صفارة » و « الحاوى » . واستمر الشيخ صنوع فى منفاه يتابع الكتابة و إصدار الصحف التى تعنى بشئون مصر ، هذا عدا ما ينشره فى كبريات الصحف الفرنسية من مقالات ممتعة . ولما وقع الاحتلال الانكليزى اشتد فى الحملة عليه واشتهر فى باريس بين الشرقيين قاطبة ، وكان له فى قلوبهم منزلة رفيعة لرفيع ثقافته ولاذع دعابته . وتوفى فى باريس سنة ١٩١٢ وكان مجهوده فى الصحافة الرمزية والهزلية أول مجهود من نوعه فهو المؤسس لهذا النوع من الصحافة بمصر .

وكان يصدر فى عهد اسماعيل بمصر عدة صحف أجنبية فى مقدمتها جريدة « الفار دالكسندرى » *Le Phare d'Alexandrie* التى أنشئت بالاسكندرية سنة ١٨٧٤ ، وجريدة « البروجريه اجيبسيان » *Le Progrès Egyptien* وهى من الصحف المعارضة لإسماعيل ، وجريدة الريفورم ثم الاجيبشيان غازيت ، وقد ظهرت بالاسكندرية منذ سنة ١٨٧٨ . وكانت تصدر بالقاهرة جريدة « البوسفور المصرى » *Le Bosphore Egyptien* صدرت أولا بالفرنسية ثم نشرت فيما بعد قسما بالعربية للدعاية لفرنسا ، وما زالت توالى الصدور حتى عطلت سنة ١٨٨٥ . كذلك كانت تصدر باليونانية أكثر من جريدة فى الثغر والقاهرة . وكانت هذه الصحف الأجنبية على الأغلب حرباً على مصر وعلى الخديو وحكومته ، وكانت شديدة التعصب للمصالح الأجنبية ، وقد لعبت فى تعكير الجو بين مصر والدول الأجنبية دوراً لا يحمد .

هذا استعراض سريع للحركة الصحفية فى عهد اسماعيل . ومما يلفت النظر أن الصحافة المصرية الوليدة التى نشأت مع بداية هذا العهد ، قد استطاعت أن تصل فى أواخره فى ظرف خمسة عشر عاماً فقط إلى ذلك المدى من التعدد والقوة والنفوذ . ولكن الطموح من خواص عصر اسماعيل ، وقد كان الجديد فى كل شىء يسير نحو التقدم فى وثبات سريعة .

محمد عبد الله عنان